حول نسبة كتاب الحجة في القراءات السبع لابن خالويه

الدكتور عبد العال سالم مكرم

قسم اللغة العربية
جامعة الكويت

تفضل الأستاذ الكريم محمد العابد الفاسي ، الاستاذ بجامعة القرويين بالمغرب بنشر بحث قيم في مجلة « اللسان العربي » ، المجلد الثامن ، الجزء الاول ص 521 ، ينقد فيه توثيقي لكتاب الحجة ، ونسبته الى ابن خالويه ، وقد نشر بحثي في المجلة نفسها ، والجزء نفسه ص 502 .

وقد اسعدني هذا النقد ، لأن الحقيقة بنت البحث كما يقولون . وقد اقتصر نقده على الفصل الذي كتبته ، واثبتت فيه نسبة الكتاب الى ابن خالويه .

واني لا اضيق ذرعا بالنقد البناء ، فاحتكاك الأفكار بعضها ببعض ينمي العلم ، ويطور المعرفة ، ويبعث في الفكر الحركة والحياة .

وكنت اود ان ابارك هذه الأدلة التي اوردها الناقد الفاضل لنفي نسبة الحجة الى ابن خالويه ، واضع يدي في يده مسلما له بكل ما قال ، ولكن الحقيقة التي دفعته الى ان يكتب هذا النقد هي الحقيقة نفسها التي دفعتني الى ان انقد هذا النقد ، لأنه قائم على ادلة لم تقتنع بها نفسي ، وانا طالب معرفة ، فاذا اقتنعت آمنت وسلمت ، واذا لم اقتنع لا الوذ بالصمت ، أو بالصبر فان الساكت عن الحق شيطان اخرس .

علي اذن ان ابين السبب في عدم اقتناعي من غير ان اسمح للحظوظ النفسية ان تتدخل في هذه المناقشة ، لان الحقيقة العلمية اكبر مني ، ومن اخي الاستاذ العابد .

وقبل مناقشة ادلة سيادته احب ان اشير هنا الى ان بعض المعاصرين الذين شكوا في نسبة هذا الكتاب الى ابن خالويه فريق من اصدقائي ناقشوني مشافهة في هذه النسبة ، وكل ادلتهم تنحصر في ان كتب الطبقات لم تشر الى ذلك ، ولم يقدم لنا هؤلاء الزملاء دراسة مفصلة منشورة في نفي هذه النسبة ، وليست هناك دراسة لابن خالويه ، ولكتابه الحجة تضمها المكتبة العربية في الشرق او في الغرب غير الدراسة التي قمت بها ، وغير هذا التعليق الذي تفضل به الأخ الاستاذ العابد على هذه الدراسة .

واما الادلة التي ذكرها الاستاذ العابد ليناقض بها أدلتي ، فاني انقدها على الوجه التالي :

1) ذكرت ان تلمذة ابن خالويه لابن مجاهد فرضت عليه ان يحيا في الدراسات القرآنية ، ويتمكن منها ، ويلم بالقراءات ، ويدافع عنها ، وانه الف الحجة في القراءات السبع لينافس به كتاب الحجة الذي الفه ابو علي الفارسي ، وان عدم ذكر الحجة لابن خالويه في كتب الطبقات يرجع الى ان الكتاب في القراءات ، فاستغنوا بذكرها عن كلمة الحجة .

ولكن هذا الدليل لم يقنع الاستاذ العابد « لان كونه من تلامذة ابن مجاهد وكونه برع في الدراسات

القرآنية ، والف فيها كتبا لا يكفي ذلك دليلا على اثبات نسبة كتاب الحجة له ، واما كونه ليس بدعا ان يؤلف في الموضوع كما فعل معاصروه أبو علي وغيره فصحيح، ولكن المسألة مسألة اثبات لا مسألة احتمال وتخمين ... » .

اقول :

ان تلمذة ابن خالويه لابن مجاهد ، وبراعة ابن خالويه في الدراسات القرآنية حيث الف كتبا في هذا المجال نصت عليها كتب الطبقات ككتاب : اعراب ثلاثين سورة ، والبديع في القراءات ، ومختصر شواذ القراءات ، وكتاب مجدول في القراءات الفه لعضد الدولة ، اقول : ان هذا كله يشير الى ان كتاب الحجة موضوع القضية نسبته الى ابن خالويه صحيحة .

وقد قلت في بحثي المنشور في مجلة « اللسان العربي» بصدد عدم ذكر هذه التسمية في كتب الطبقات: ان شهرة كتاب الحجة للفارسي غطت على شهرة الحجة لابن خالويه حيث اشتغل الناس به قراءة ، وتلخيصا كما فعل أبو محمد مكي بن أبي طالب في كتابه : المنتخب في اختصار كتاب الحجة للفارسي وغيره .

ومن الجلي أن أصحاب كتب الطبقات وابن خالويه نفسه اشاروا الى أن له كتابا في القراءات ، فأين ذهب هذا الكتاب ؟ لا يمكن أن يكون كتاب القراءات المصور بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم 52 قراءات ، لان منهج ابن خالويه فيه يقوم على الاستطراد والاطناب، اذ يتحدث عن تفسير الآيات واسباب نزولها ، ويحشد قصصا عديدة في مناسبات مختلفة ، وليست القراءات فيها ، والاحتجاج بها الا جزءا يسيرا من هذا المنهج ، فكتابه في حقيقة أمره كتاب تفسير لا قراءات ، شأنه شأن كتب التفسير التي تتعرض لهذه الأغراض جميعا، وقد نسخ هذا الكتاب المصور سنة 600 هـ بخطوط مختلفة آخرها خط صديق بن عريبن محمد بن الحسين (1) .

على اننا نجد كتاب الحجة موضوع الحديث نسخ بخط واحد سنة 496 هـ وهو موقوف على القراءات وحدها ، والاحتجاج لها .

ان الذي يطمئن اليه القلب ، ويرتضيه العقل ان كتاب القراءات المنسوب الى ابن خالويه في كتب الطبقات هو كتاب الحجة نفسه ، لانه لا يعقل ان يكرر ابن خالويه ما كتبه أستاذه ابن مجاهد في القراءات ، لأن ابن مجاهد كل عمله في القراءات انه انتخب من القراءات العديدة هذه القراءات السبع وليس فيه الاحتجاج النحوي أو اللغوي لهذه القراءات ، على حين يطالعنا كتاب الحجة لابن خالويه بالتوجيه لكل قراءة ، والاحتجاج لها في مجال النحو واللغة وكذلك فعل أبو علي الفارسي في حجته ، اعتمد على هذه القراءات السبع التي جمعها أستاذه ابن مجاهد ، واحتج لها في ميدان النحو واللغة .

يقول الفارسي في مقدمته : « فان هذا كتاب تذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءاتهم في كتاب ابي بكر احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد » (2) ، فأبو علي الفارسي كما يبدو في مقدمته، لم يرد أن يكون كتابه نسخة مكررة من كتاب أستاذه ابن مجاهد ، بل كان عمله التوجيه والاحتجاج ، اذا كان الامر كذلك فهل يعقل في باب المنطق أن يأتي معاصر لأبي علي كانت بينهما منافسات علمية خطيرة اشرت اليها في بحثي المنشور في مجلة « اللسان العربي » ــ ليؤلف في القراءات وتكون مهمته تكرار كتاب أستاذه ؟

ان العصر الذي ضم هؤلاء الأعلام كان عصر احتجاج للقراءات التي ثبتت عن ابن مجاهد ، ولم يكن الأمر مقصورا على ابي علي الفارسي فقد شاركه في ذلك محمد بن الحسن الانصاري المتوفى 351 حيث الف كتاب السبعة بعللها الكبير ، وكتاب السبعة الأوسط ، وكتاب السبعة الأصغر (3) والف كذلك ابو محمد الحسن بن مقسم المتوفى 362 هـ كتاب السبعة بعللها : الكبير ، والأوسط ، والأصغر (4) .

ايصح ان يقال اذن : ان ابن خالويه اللغوي الكبير كان عاجزا عن متابعة هذه الحركة القرآنية في عصره، وهو من خيرة اعلامه ، ومن اشهر تلاميذ ابن مجاهد ؟.

---

(1) فهرس مخطوطات الجامعة العربية 12 ، وفهرس المخطوطات ، الجزء الاول : 1 س \ 276 .
(2) مقدمة الحجة لابي علي الفارسي 1 ــ دار الكتاب العربي .
(3) الفهرست لابن النديم ــ 32 ــ 33 .
(4) المرجع نفسه والصفحة ..

الوقع ان العقل لا يسلم بذلك ، فان الظروف المحيطة بهذا اللون من الدراسات تلح على ابن خالويه ان يؤلف فى القراءات ، ويوجهها ، ويحتج لها كما فعل معاصروه واكبر الظن أن الكتاب كان عنوانه الحجة فى القراءات السبع فعند النسخ سقطت كلمة الحجة ، وهو امر يحدث كثيرا على يد النساخ ، أو اختصر عنوانه فاصبح : القراءات ، واختصار العناوين ليس بدعا فى مؤلفاتنا . وقد اشار الى ذلك محققو كتاب الحجة للفارسي حيث ذكروا ان كتاب الحجة يرد « فى الكتب التي تذكره باسماء مختلفة منها : الحجة ، والحجة فى علل القراءات السبع ، والحجة فى شرح القراءات السبع (5) .

الا يدل ذلك على أن ابا علي لم يضع هذه الاسماء العديدة لكتابه ، وانما وضع اسما واحدا فقط ، فجاء الرواة ، او الناسخون ، فغيروا وبدلوا مما جعل اسم هذا الكتاب يتخذ صورا متعددة .

على ان ابن خالويه كان فى مقدمته صريحا ، فقد ذكر ان الكتاب فى الاحتجاج وقد قلت : ان انسب تسمية لهذا الكتاب هي الحجة ، فكلمة الحجة تطالعك فى كل سطر من سطور هذا الكتاب .

— ◆ —

2) ذكرت ان كتب الطبقات ليست حجة قاطعة نرجع اليها فى نفي نسبة الكتاب الى ابن خالويه حيث لم تشر اليه ، ذلك لان هذه الكتب نفسها اغفلت ذكر كتب لابن خالويه ، منها : كتاب اسماء الله الحسنى الذي اشار اليه ابن خالويه نفسه فى كتابه : اعراب ثلاثين سورة حيث قال : « وقد صنفتها فى كتاب مفرد ، واشتقاق كل اسم منها ومعناه (6) .

وقد علق الاستاذ الناقد على هذا القول بقوله : « هذا كلام من نمط سابقه فان كتاب الحجة جدير بأن يذكر فى اول قائمة كتب ابن خالويه لو صحت النسبة وحيث لم يذكر فى كتب الطبقات ، ولا ذكر فى باقي كتب ابن خالويه ، فهذا دليل على عدم صحة نسبته اليه ، لان كتب الطبقات لم تذكره ، ولان ابن خالويه لم يشر اليه فى تضاعيف كتبه » .

اقول لاخي الناقد :

لا احب ان اكرر ما قلت فى شان كتب الطبقات فليس اصحابها فى عصمة من النسيان وليست هذه الكتب فى مأمن من الخطأ ، ولا ادل على ذلك من هذا التراث الضخم الذي حوته فهارس مكتباتنا فى الشرق والغرب ولا تجد للكثير منه ذكرا فى كتب الطبقات المعروفة .

الم اقل فى بحثي لانتاج ابن خالويه العلمي : انني استطعت ان انسب الى ابن خالويه كتبا لم تضمها كتب الطبقات ، وعددت من هذه الكتب عشرة كتب اذكر منها كتاب الريح ، وكتاب اسماء الله الحسنى ، وكتاب الهاذور ، وشرح ديوان ابي فراس الحمداني .. اتسقط هذه الكتب لانها لا توجد فى البغية ، أو فى انباه الرواة ، او فى معجم الادباء ... الخ ؟ لو فعلنا ذلك لاجهزنا على تراثنا بايدينا من حيث لا نشعر ولا اسلم ايضا للناقد الفاضل بأن ابن خالويه لم يشر اليه فى تضاعيف كتبه ، لان ابن خالويه قد اشار اليه ، اشار اليه فى كتابه « اعراب ثلاثين سورة » عند تعرضه للقراءات فى قوله تعالى : « انعمت عليهم » قال : « اجمع العلماء على كسر الهاء فى التثنية اذا قلت : عليهما ، قال الله عز وجل : « يخافون انعم الله عليهما » (7) الا يعقوب الحضرمي فانه ضم الهاء فى التثنية كما ضمها فى الجمع ، وقد ذكرت علة ذلك فى كتاب « القراءات » (8) وهذا التعليل تجده فى الحجة (9) . واما عدم ذكره باسم الحجة فقد بينت السر فى ذلك ، وان هذه التسمية جاءت متأخرة عن عصر ابن خالويه .

ان ابن خالويه حينما يقول : ذكرت علة ذلك فى كتاب « القراءات » اليست هذه اشارة واضحة الى ان المعنى بذلك هو كتاب الحجة ؟ وما مدلول قوله : « علة ذلك » اليست العلة هي التوجيه النحوي أو اللغوي ، وما التوجيه النحوي أو اللغوي الا الاحتجاج ،

---

(5) انظر مقدمة الحجة للفارسي — 4 .
(6) اعراب ثلاثين سورة — 14 .
(7) المائدة — 23 .
(8) اعراب ثلاثين سورة — 32 .
(9) الحجة فى القراءات السبع : تحقيق : عبد العال سالم مكرم — طبع دار الشروق — بيروت .

وما الاحتجاج الا ذكر الحجة ، والحجة تتكرر فى كل قراءة يعرضها الذي يعنيني ياسيدي والا واخيرا هو المضمون لا الشكل ، والجوهر لا العرض ، والمعنى لا اللفظ ، وهذا كله يشير الى ان كتاب القراءات الذي اشار اليه ابن خالويه هو فى الاحتجاج ، وبذلك لا نسلم للناقد الفاضل قوله : انه لم يشر اليه فى تضاعيف كتبه .

— ◆ —

3) وحينما ذكرت أن التسمية بالحجة قد تكون من عمل المتأخرين ، وحتى كتاب الحجة للفارسي لم يقدمه أبو علي لعضد الدولة باسم الحجة .

يقول الأستاذ العابد معلقا : « اننا نؤكد أن النسخ العتيقة التي توجد من كتاب الحجة لأبي علي الفارسي مكتوب بظهر أول ورقة من اجزائه بخط عريق فى القدم من نسخة كان يتملكها الحافظ الحجة أبو الحسن علي بن محمد الشاري ما صورته : الجزء السابع من كتاب الحجة لقراء الأمصار ... الخ . فمن اين الجزم بأن أبا علي الفارسي لم يسم كتابه بالحجة ؟

اقـــول :

اخي ، ان الذي دفعني الى هذا القول هو ان عنوان الكتاب على الغلاف ليس هو الفيصل فى القضية كما فهمت سيادتك .. فقد درج المؤلفون ان يذكروا فى مقدمة كتبهم أسماء هذه الكتب أو موضوعاتها ، ويقوم الناسخون بوضع هذه التسمية على الغلاف ان كانت مذكورة فى المقدمة ، أو وضع اسم ينطبق على موضوع الكتاب ان لم يكن اسمه مذكورا بنصه ، على ان الغالب فى مؤلفات القدامى انهم يذكرون موضوعات كتبهم فى مقدماتهم ، ولا يشيرون الى أسمائها ، فعل ذلك أبو علي الفارسي حينما ذكر فى مقدمة كتابه الحجة ما نصه : فان هذا كتاب تذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءاتهم فى كتاب أبي بكر احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد (10) ولم يشر الى هذه التسمية وانما فهمت التسمية من موضوع الكتاب ، ولذلك اختلف الرواة فيها كما بينت آنفا .

وفعل ذلك ابن خالويه حينما ذكر فى مقدمته ما نصه : « وانا بعون الله ذاكر فى كتابي هذا ما احتج به اهل صناعة النحو لهم فى معاني اختلافهم » (11) فكلمة « احتج » تجدها فى مقدمة ابن خالويه على حين تفتقدها فى مقدمة الفارسي .

وفعل ذلك ايضا الفارسي فى كتابه « الاغفال » حيث يقول فى مقدمته بصدد المسائل التي اغفلها الزجاج ما نصه : « ذكرناها لما اقتضت عندنا من الايضاح للاغفال الواقع فيها » وكتب على غلاف النسخة المخطوطة « الاغفال لأبي علي الفارسي (12) .

وكذلك فعل ابو محمد مكي بن ابي طالب الأندلسي فى مقدمة كتابه « تفسير مشكل اعراب القرآن » حيث يقول : « فقصدت فى هذا الكتاب الى تفسير مشكل الاعراب ، وذكر علله ، وصعبه ، ونادره ، ليكون خفيف المحمل » (13) .. الخ . ولم يشر الى أن هذا الكتاب اسمه « تفسير مشكل اعراب القرآن » وانما ذكر الموضوع ، ولا يخفى على الراوية أو الناسخ لب هذا الموضوع ، فاستنتج الاسم منه ونسب اليه .

ولا ابالغ اذا قلت : ان كتاب سيبويه اشهر كتاب انتشر فى الآفاق لم يسمه سيبويه بهذا الاسم ، وانما جاءت التسمية من الرواة أو الدارسين أو الناسخين، يقول استاذنا المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون فى مقدمته القيمة لتحقيق كتاب سيبويه ما نصه : « وقد عرف كتاب سيبويه من قديم الدهر الى يومنا هذا باسم الكتاب أو كتاب سيبويه ، ومن المقطوع تاريخيا أن سيبويه لم يسمه باسم معين » (14) .

وفى العصور المتاخرة نجد المؤلفين ينصون على تسمية كتبهم فى مقدماتها وبذلك يكون عنوان الغلاف وفق عنوان اسم الكتاب المشار اليه فى المقدمة فهذا ابن هشام فى مقدمة كتابه المغنى يشير الى اسم كتابه فيقول : « سميته بمغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » ، والسيوطي فى مقدمة كتابه الهمع يقول : « فتخيرت

(10) مقدمة الحجة للفارسي ـ 3 .
(11) الحجة لابن خالويه ـ 38 ـ طبع دار الشروق ـ بيروت .
(12) الاغفال لأبي علي الفارسي مخطوط رقم 649 تفسير ـ دار الكتب المصرية .
(13) شكل اعراب القرآن مخطوط رقم 232 ، تفسير ـ دار الكتب .
(14) مقدمة المحقق 1 ـ 23 ـ طبع دار القلم .

لهم هذه المجالة الكاملة بحل مبانيه ، وتوضيح معانيه الى ان يقول : مسماة بهمع الهوامع فى شرح جمع الجوامع » .

ولعل فى هذا الدليل الشافي فى ان عنوان الكتاب قد لا يكون فى بعض الأحيان من وضع المؤلف، أو من تسمية المؤلف .

— ◆ —

4) وقد ذكرت ان من الادلة على ان الحجة لابن خالويه دليل التنافس العلمي فى هذا العصر ، ولكن هذا الدليل لم يرق فى نظر الناقد فكتب يقول : « وانا لا ادري ما وقع هذا الدليل . والتنافس العلمي ولو بلغ ما بلغ لا ينتج مثل هذا الفرض المشكوك فيه من أصله ، وقد وقع التنافس فى كثير من الفنون فى عصره ، ولم يؤلف ابن خالويه فى جميع تلك العلوم المتنافس فيها » .

اقـــول :

لعل الناقد الفاضل يذكر ان أهم ما كان يشغل ذهن ابن خالويه هو العلوم القرآنية ، واذا نافس فانه ينافس فى مجالها ، أما ما عدا ذلك من الوان المعرفة كالطب والفلك ، والمنطق والفلسفة ، والحساب والهندسة ، فهذه علوم لا تدخل فى حساب المنافسة .

وقد اشرت الى منافسته للفارسي وابن جني ، وغيرهما كما سبق بيانه فى مجال الدراسات القرآنية .

— ◆ —

5) وقد قلت :

ان من أوضح ادلة التوثيق لهذا الكتاب ، ونسبته لابن خالويه تشابه أسلوبه ومنهجه مع مؤلفات ابن خالويه الاخرى ، وهذا التشابه محصور فى الايجاز والاختصار ، وموضوعات اخرى ذكرتها فى بحثي ، واستدللت عليها بنصوص لا تقبل الجدل ، ولا تحتمل الشك .

ولكن الاخ الناقد لم يعجبه هذا التدليل فقال : « ان الاسلوب والمنهج الذي كان سائدا فى عصر ابن خالويه لم يكن خاصا به بل كان عاما لدى الشخصيات التي تتلمذ لابن مجاهد ، وابو علي الفارسي فى كتابه لم يكن يتبع غير طريقة الايجاز ولو نسبيا » .

اقـــول :

لقد جعلني الناقد الفاضل اشك فى انه قرأ او اطلع على كتاب الحجة للفارسي الذي طبع منه الجزء الاول بتحقيق أستاذنا النجدى ورفاقه ، وقد اشار سيادته فى نقده الى هذا الجزء المطبوع .

من قال : ان ابا علي الفارسي فى كتابه الحجة كان طابعه الايجاز ولو نسبيا ؟ ان هذا قول لا تطمئن اليه النفس واليك الدليل :

ان الجزء الاول المطبوع من حجة الفارسي يحتوي على 331 صفحة من القطع الكبير ، ابتداء بفاتحة الكتاب ، وانتهاء بقوله تعالى : « على كل شيء قدير » آية 20 من سورة البقرة . اي ان هذا الجزء الضخم كله توجيه لقراءات الفاتحة ، ولعشرين آية من سورة البقرة ، فهل هذا ايجاز يا سيدي ؟

ان الاساتذة المحققين احسوا ان نشر كتاب الحجة للفارسي قد يصل الى اربعين جزءا على غرار الجزء الاول مما يتطلب وقتا طويلا ، وعمرا مديدا ، ومنذ ثلاث سنوات لم ير النور من كتاب الحجة للفارسي غير هذا الجزء الاول ، مما دفعني دفعا قويا الى اخراج كتاب الحجة لابن خالويه ، لانه يقدم للقارىء خلاصة موجزة للاحتجاج النحوي واللغوي للقراءات السبع فى أسلوب ممتع ، وفى عرض يشرق على القارىء بهاؤه ويستولي على نفسه جماله ، وقد جعل الاختصار رائده ليحقق الهدف الاكبر من تاليفه ، وهو انتفاع الناس به، أو كما يقول فى مقدمته :

«قاصدا قصد الابانة فى اقتصار من غير اطالة ولا اكثار ، جامعا ذلك بلفظ بين جزل ، ومقال واضح سهل ليقرب على مريده ، وليسهل على مستفيده » (15) ، ومن حسن الحظ ان كتاب الحجة لابن خالويه اصدرته ونشرته دار الشروق ببيروت فى اوائل اغسطس سنة 1971 ، وهو الآن يشق طريقه الى عقول القراء ، لانه الكتاب الوحيد فى المكتبة العربية الآن الذي يمكن للقارىء الرجوع اليه عند توجيه قراءة فى مجال النحو واللغة من القراءات السبع .

(15) مقدمة ابن خالويه ـ 38 .

والى اخي الفاضل الأستاذ العابد اقدم دليلا ملموسا من كلام ابن جنى تلميذ الفارسي حول هذا الكتاب ، وراي ابن جنى الذي امتص ثقافة استاذه الفارسي فى هذا المجال راي لا يتسرب اليه الشك او الضعف لانه شهادة على النفس كما النفس ، ولان ابن جنى من الفارسي بمثابة الروح من الجسد . يقول ابن جنى فى المحتسب : (فان ابا علي رحمه الله عمل كتاب الحجة فى القراءات فتجاوز فيه قدر حاجة القراء ، الى ما يجفو عنه كثير من العلماء » (16) .

ويقول فى موضع آخر : « وقد كان شيخنا ابو علي عمل كتاب الحجة فى قراءة السبعة فأغمضه واطاله حتى منع كثيرا ممن يدعى العربية فضلا عن القراء ، واجفاهم عنه (17) .

الا يدل هذا على ان ابا علي الفارسي لم يكن رائده الايجاز والاختصار كما يقول الناقد . بل كان رائده التطويل الممل ، والاستطراد المخل ، والاسلوب المعقد كما اشار الى ذلك تلميذه ابن جنى .

وليقتنع الناقد الفاضل بما اقول فاليه هذا المثال من كتاب حجة الفارسي :

قال ابو علي فى قوله تعالى : « مالك يوم الدين » « اختلفوا فى اثبات الالف واسقاطها من قوله » . « ملك يوم الدين » ثم يبين قراءة عاصم ، وقراءة غيره وبعد ذلك ينقل عن ابي بكر محمد السري نصا يستدل فيه على ان « ملك » يجمع (مالكا) اي ملك ذلك اليوم بما فيه ، ومالك انما يكون للشيء وحده .

ولا يكتفي بهذا ، بل ينقل حكاية عن عاصم الجحدري ، وبعد ذلك ينقل رواية لثعلب يحتج فيها لقراءة الكسائي « ملك الناس » ويستطرد الى قول ابي عبيد فى تفسير معنى « ملك يوم الدين » ويبين ان المالك والملك يجمعهما معنى واحد ويرجعان الى اصل وهو الربط والشدة ، ويستدل على ذلك بالشعر العربي ويستطرد مرة اخرى الى تفسير معنى الاملاك ، وهو ربط الرجل بالمراة ويعود من حيث بدا الى قراءة « ملك » ، وقراءة « مالك » وسرعان ما يترك توجيه القراءة الى موضوع آخر ليس منها فيقول : قال ابو الحسن الاخفش يقال : ملك بين الملك : الميم مضمومة، وتقول : مالك بين الملك والملك بفتح الميم وكسرها.

ولا يكتفي بهذا بل ينقل عن ابي عثمان فيقول : وقال ابو عثمان : شهدنا املاك فلان وملكه ، ولا يقال : ملاكه، وينتقل الى الحديث عن املاك المراة وهو العقد عليها ، وقد ذكره فيما قبل ثم عاد اليه .

ومن غير وحدة او ترابط يرجع بعد ذلك الى قراءة « ملك » او « مالك » فاذا فرغ من هذا اتجه الى الحديث عن اضافة مالك الى يوم الدين والاضافة باب من ابواب النحو ، اخذ ابو علي يشق الحديث عنها الى منتصف ص 36 ، اى ان الحديث عن مالك يوم الدين تناول 36 صفحة من القطع الكبير . فهل هذا ايجاز او اختصار ؟

انظر الى ما كتبه ابن خالويه فى «مالك يوم الدين» قال ما نصه : « يقرأ باثبات الالف وطرحها ، فالحجة لمن اثبتها ان الملك داخل تحت المالك والدليل له قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك » (18) والحجة لمن طرحها ان الملك اخص من المالك وامدح ، لانه قد يكون المالك غير ملك ، ولا يكون الملك الا مالكا (19)

وقد بلغت صفحات حجة ابن خالويه بعد طبعه 318 صفحة من القطع الكبير خلاف المقدمة والفهارس مع انه تناول توجيه القراءات السبع فى القرآن الكريم كله مبتدئا بفاتحة الكتاب ، ومنتهيا بسورة الناس .

— ◆ —

6) ومن ادلتي فى ان كتاب الحجة تصح نسبته الى ابن خالويه ان الاعلام الذين سجلهم ابن خالويه فى كتابه كانوا اسبق منه زمنا مما يدل على ان الكتاب لم يؤلف بعد عصر ابن خالويه . ولكن هذا الدليل من الأدلة الواهية فى نظر الناقد الفاضل حيث يقول : « هذا من الاستدلالات الواهية ، ومتى كان النقل عن أعلام سابقين فى الزمان دليلا على تثبيت نسبة الكتاب لشخص معين » .

---

(16) انظر : مقدمة المحتسب لابن جنى ـ طبع المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية .
(17) مقدمة المحتسب المرجع السابق .
(18) آل عمران ـ 26 .
(19) الحجة لابن خالويه ـ 38 .

أحب أن اذكر الاستاذ الناقد بما ذكره استاذنا المحقق عبد السلام هارون حيث قال ما نصه في كتابه المبتكر « تحقيق النصوص ونشرها » : « وتعد الاعتبارات التاريخية من اقوى المقاييس في تصحيح نسبة الكتاب او تزييفها ، فالكتاب الذي تحشد فيه اخبار تاريخية تالية لعصر مؤلفه الذي نسب اليه جدير بأن يسقط من حساب ذلك المؤلف . ومن أمثلة ذلك كتاب نسب الى الجاحظ وعنوانه « كتاب تنبيه الملوك والمكايد » ومنه صورة مودعة بدار الكتب المصرية برقم 2345 ادب . وهذا الكتاب زيف لا ريب في ذلك ، فانك تجد من أبوابه باب « نكت من مكايد كافور الاخشيدي » و « مكيدة توزون بالمتقى لله »، وكافور الاخشيدي كان يحيا بين سنتي 292 ، 357 ، والمتقى لله كان يحيا بين سنتي 297 و 357 ، فهذا كله تاريخ بعد وفاة الجاحظ بعشرات من السنين (20) ومن الأمثلة على ذلك ايضا ما ذكرته في كتابي «القرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية » ان كتاب اعراب القرآن للزجاج المخطوط بدار الكتب المصرية رقم 528 تفسير ليس للزجاج بأدلة ذكرتها ، منها : ورود عبارة في هذا الكتاب وقفت عندها طويلا وهي قوله في باب التقديم والتأخير : « وقد تصالح الأستاذ والغلام على ان الظرف يعمل فيه الوهم ورائحة الفعل » وذهبت أبحث من الأستاذ ؟ ومن الغلام ؟ لأنه اذا تم التعرف عليهما أو على أحد منهما ، وتبين انهما عاشا في عصر متأخر عن عصر الزجاج أمكن أن يكون ذلك دليلا يؤكد ان كتاب اعراب القرآن هذا ليس للزجاج .

اقول : بعد بحث طويل وجدت في تاريخ الادب العربي « لبروكلمان » ما نصه :

« وكان أوفى تلاميذ ثعلب له ، واقربهم اليه أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد المطرز الوراق البارودي ، ومن ثم سمي غلام ثعلب ، وتوفي غلام ثعلب ببغداد سنة 345 هـ » (21) على أن الزجاج المنسوب اليه هذا الكتاب توفي عام 311 هـ (22) ولعل في هذا القدر الكافي لاقناع الأخ الناقد .

— ◆ —

7) واما الدليل السابع من ادلة النقد ، فانه ينصب على قولي : « ومن الأدلة تقارب بعض النصوص في مؤلفات ابن خالويه الأخرى مع بعض نصوص الحجة ، وقلت : انني لا ابالغ في أن هناك نصوصا بأساليبها وكلماتها في هذه المؤلفات هي بعينها في كتاب الحجة » .

ولكن الناقد لا يقتنع بهذا ايضا فيقول : « ان هذه المشابهة أو المقارنة بين النصوص لا تفيد شيئا في الواقع ، ومجرد القاء الباحث نظرة في كتاب الحجة لأبي علي الفارسي المعترف به من الجميع مع مراجعة ما قاله النحويون ، والقراء والمفسرون والمعاصرون ، للفارسي ولابن خالويه يجد أن جميع تلك النصوص متشابهة ومتقاربة في المعنى حتى وفي اللفظ في بعض الأحيان ، ومع ذلك التشابه والتقارب لا يمكن أن نستدل بذلك على اثبات نسبة كتاب معين لشخص معين بمجرد التشابه والتقارب » .

اقول :

كنت أود من الزميل الفاضل أن يذكر لي ، ولو نصا واحدا من هذا التشابه والتقارب المعنوي أو اللفظي كما ذكر .

يا سيدي .. لقد علمتنا كتب التراث امانة النقل فاذا رجع مفسر من المفسرين او النحويين أو القراء الى حجة ابي علي مثلا ، فانه لا ينقل نصوصا متقاربة المعنى أو متشابهة اللفظ الا بعد ان يذكر قوله : (وقال الفارسي في الحجة) اما أن يعتدي على المعاني ، ويكسوها الفاظا من عنده فهذه سرقة لا تليق بعالم يعتد بقوله . ومن وقع فيها شهر به ، وسخر منه ، والروايات على ذلك عديدة . والمعاني يا سيدي مطروحة في الطريق ، وانما هي نتيجة كد الذهن ، واعمال الفكر ، وبذل الطاقة والاطلاع الواسع والالهام المبدع . كيف تتقارب المعاني ، ولكل مفسر منهجه وطريقته ولكل كتاب من كتب القراءات في الاحتجاج وغيره اسلوبها الخاص وطريقتها الخاصة ؟ نعم ان النقول قد تعددت في كتب التراث ، ولكنها نقول لها مصادر معروفة ، واشخاص معروفون صدرت عنهم ، ونقلت منهم ، ولا يصح التصرف فيها بالتغيير أو

---

(20) تحقيق النصوص ونشرها ـ 43 طبعة ثانية (الحلبي) .
(21) تاريخ الادب العربي لبروكلمان 2 ـ 218 ، والقرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية ـ 275 .
(22) = البقية 1 ـ 413 .

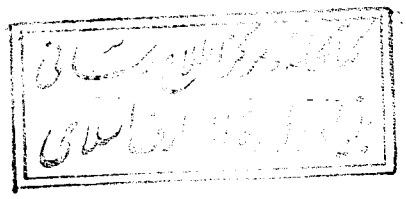

التبديل . وما عدا ذلك ففردية فى الطريقة ، وفى المنهج وفى الأسلوب ، والا كان تكرارا او سطوا وكلاهما لا يليق بأولى العلم والمعرفة ، هذا فى مجال المعاني فما بالك فى مجال تشابه اللفظ . اظن ان توافق الخواطر قد يحدث فى جملة او كلمة اما ان يحدث فى نص تتعدد سطوره فذلك امر لا يقبله المنطق . وقد ذكرت يا سيدي تشابه اسلوب ابن خالويه فى كتاب الحجة بأساليبه فى كتبه الأخرى ، لأن المؤلف واحد ، والعقل واحد ، والأسلوب واحد ، وطريقة التفكير واحدة . وقد بينت ان فى الحجة من كتاب «اعراب ثلاثين سورة» نصوصا بألفاظها ومعانيها، وان فى الحجة من كتاب « الريح » نصوصا بألفاظها ومعانيها ، وقد سجلت ذلك فى بحثي المنشور فى مجلة «اللسان العربي» نفس العدد الذي ذكر فيه نقد الأستاذ الفاضل . الا يكفي هذا دليلا واضحا على ان الحجة لابن خالويه لا لغيره .

— ◆ —

8) والناقد الفاضل لم يعترف بقدم النسخ ، « لأن الناسخ مجهول امره ، ولأن الخط ليس من الخطوط المتداولة فى القرن الخامس الهجري ، يعرف هذا بالبداهة من له خبرة بالخطوط ، وتطوراتها، والمقابلة المذكورة لا تفيد اي شيء ولأن كاتبها مجهول»

اقول :

ان هذا الدليل لا نسلم للسيد الفاضل بصحته ، لأن كثيرا من الكتب المخطوطة لم تظفر بذكر اسم ناسخها ، وجهل الناسخ لا يقلل من قيمتها ، لأن الدراسة التي تقوم حولها ، وتحليل مناهجها وطريقة تأليفها ، والتمرس بأسلوب مؤلفها ، والخبرة بالعصر الذي نسخت فيه كل ذلك يزيل الغموض عنها ، كما فعلت ذلك فى دراستي لكتاب الحجة .

على ان كتاب الحجة للفارسي لم تظفر النسخة الأصل التي اعتمد عليها المحققون باسم الناسخ ، فهل جهل الناسخ ينفي ان كتاب الحجة للفارسي . اليس من التناقض أن اثبت أن كتاب الحجة منسوب للفارسي مع جهل الناسخ ، وانفى نسبة كتاب الحجة لابن خالويه لأن الناسخ مجهول ؟

اما جهل ناسخ الحجة للفارسي فاليك الدليل :

قال المحققون : « اعتمدنا فى تحقيق كتاب الحجة على نسختين كتبت اولاهما سنة 390 هـ بخط النسخ الواضح ، وضبطت كلماتها بالشكل ضبطا كاملا وهي فى مكتبة بلدية الاسكندرية برقم 3570 ع ، وفى دار الكتب المصرية صورة منها برقم 462 قراءات وفى خزانة مجمع اللغة العربية مصورة منها كذلك ، وقد جعل المحققون هذه النسخة هي الأصل لأنها الأقدم فى النسخ ، ولم يشيروا الى اسم الناسخ لانه غير موجود » .

من هذا ، يتبين ان ظاهرة كتابة اسم الناسخ قد تتخلف فى كثير من الكتب المخطوطة وليس الجهل بالناسخ ينقص من قدر المخطوط ، ويقلل من قيمته ، والا لما اعترفنا بكتاب الحجة للفارسي ، وهو لا يتطرق اليه الشك .

مع ان هذه النسخة كما يقول المحققون كتبت بخطوط مختلفة فقد ذكروا ما نصه :

« ويلاحظ ان خط الصفحتين الأولى والثانية مخالف لخط سائر الصفحات فى كل من الجزء الأول ، والثاني ، والسابع ، وخط الصفحات الأولى والثانية والأخيرة مخالف لخط سائر صفحات الجزء الثالث ، وخط الصفحتين الأوليين والصفحتين الأخيرتين مخالف لخط سائر صفحات الجزء الرابع ، وخط الصفحة الأخيرة مخالف لخط سائر صفحات الجزء السادس » (23) .

وكتاب الحجة لابن خالويه كتب بخط واحد ، لم يتخلف فى صفحة واحدة من صفحات هذا الكتاب .

واحب ان اطمئن الأخ الفاضل الى ان هذا الخط الذي كتبت به نسخة الحجة من الخطوط المتداولة فى القرن الخامس ، وقد رجعت الى استاذنا المحقق عبد السلام هارون ، وعرضت عليه صفحات مصورة من هذه النسخة ، فأقر بما لا يدع مجالا للشك انها من خطوط القرن الخامس الهجري . وكذلك اقر هذا الزميل المحقق الأستاذ عبد الستار فراج رئيس قسم التراث بوزارة الثقافة بالكويت .

(23) = مقدمة الحجة للمحققين — 33 .

ومما يجدر ذكره أن الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رغب في أن يقوم طالب من طلاب الدراسات العليا لتحقيق نسخة الحجة لابن خالويه للحصول على الدكتوراه تحت اشرافه وفعلا بدا الطالب يستعد لتسجيل هذا الموضوع في كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، ولما علم الدكتور الفاضل اني قمت بتحقيقه ، وفرغت منه ، عدل عنه ، اكتفاء بتحقيقي ولا انسى ان اذكر للناقد ان خبراء الخطوط بدار الكتب المصرية عرضوا هذا الكتاب في معرض الخطوط العربية القديمة على انه واحد من الكتب التي تبين معالم الخطوط في القرن الخامس الهجري .

ولعلي بهذا اكون قد بينت للناقد الفاضل وجهة نظري في ادلته مؤيدة بالدليل بعيدة عن هوى النفس ، او عن داء التعصب للراي .

بقيت ملاحظات اخرى عامة ، احب ان اوجه نظر الناقد الفاضل اليها :

(1) تناقض الناقد مع نفسه : فعنوان تعقيبه حمل العبارة التالية :

(نسبة الحجة الى ابن خالويه لا تصح) ثم ذكر بعد ذلك في السطور الأخيرة من تعقيبه انه (لا يمكن ان ننفيه عنه نفيا قاطعا) .

ومن حقي ان اسأل الناقد : هل يجوز في مجال البحث العلمي ان تنفي ثم تنفي هذا النفي ولو بدرجة ما ؟ لان نفي النفي ، اثبات ، كان الأجدر ان يكون عنوان نقدك : (نسبة الحجة الى ابن خالويه فيها نظر) او ليست مؤكدة ، او يتطرق اليها الشك ، اما ان تنفي هذه النسبة بلا النافية ، ثم تعود بعد ذلك لتنفي ما نفيت ، هذا امر لا يتلاءم مع منهج البحث .

(2) اثبت الناقد في السطور الأخيرة من نقده: « ان الذي تميل اليه النفس هو ان كتاب الحجة هذا هو احد المختصرات التي اختصر بها كتاب الحجة الأصلي لابي علي الفارسي لعالم مجهول » .

اقـــول :

ان الناقد الفاضل نقد نفسه بهذا القول ، الم يقل بعد ذلك بسطور « والذي يجعلنا نميل الى نفي هذه النسبة هو ان جميع المصادر التي ترجمت لابن خالويه لم تذكر في قائمة كتبه تأليفه الحجة ، ولم يعرج أصحاب المعاجم والفهارس وطبقات القراء عليه » هذا القول ذاته موجه اليك يا سيدي ، فاذا كان حجة ابن خالويه مختصرا لحجة الفارسي فلم لم تشر اليه المعاجم والفهارس وطبقات القراء مع شدة اعتناء العلماء بحجة الفارسي فقد ذكروا ان مكي ابن ابي طالب المتوفى 437 هـ اختصره في كتاب سماه : منتخب الحجة في القراءات ، واختصره ايضا ابو طاهر اسماعيل بن خلف الاندلسي المتوفى 455 هـ ، ومحمد بن شريح الرعيني المتوفى 476 هـ (24) .

ولم يشر أحد الى ان عالما مجهولا لخص حجة الفارسي ، وبذلك يكون الناقد وقع فيما نقد به غيره .

والحقيقة أن حجة ابن خالويه تبعد كل البعد ان تكون تلخيصا أو اختصارا لحجة الفارسي ، وذلك لأمرين :

أ ـ ان مقدمة حجة ابن خالويه تختلف في منهجها عن مقدمة الحجة للفارسي ، فابن خالويه يقول في مقدمته : « وبعد ، فاني قد تدبرت قراءة الأئمة السبعة من اهل الامصار الخمسة المعروفين بصحة النقل ، واتقان الحفظ ، المأمونين على تأدية الرواية واللفظ ، فرايت كلا منهم قد ذهب في اعراب ما انفرد به من حرفه مذهبا من مذاهب العربية لا يدفع . وقصد من القياس وجها لا ينفع فوافق باللفظ والحكاية طريق النقل والرواية ، الى ان يقول : وانا بعون الله ذاكر في كتابي هذا ما احتج به اهل صناعة النحو لهم في معاني اختلافهم وتارك ذكر اجتماعهم وائتلافهم الى أن يقول : وقاصد قصد الابانة في اقتصار من غير اطالة ولا اكثار ، الى ان يقول : جامعا ذلك بلفظ بين جزل ، ومقال واضح سهل ليقرب على مريده ، وليسهل على مستفيده » (25) .

والفارسي يقول في مقدمته : « فان هذا كتاب تذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءاتهم في كتاب ابي بكر احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد المترجم بمعرفة قراءات أهل الامصار والحجاز ، والعراق ، والشام بعد ان نقدم ذكر كل حرف من ذلك على حسب ما رواه ، واخذناه عنه ، وقد كان ابو بكر محمد بن السري شرع في تفسير صدر من ذلك في

(24) البقية : 297 ـ 195 ، وكشف الظنون 2 ـ 244 .
(25) الحجـــة 37 ـ 38 .

كتاب كان ابتداء باملائه وارتفع منه تبييض ما فى سورة البقرة من وجوه الاختلاف عنهم ، وانا اسند اليه ما فسر من ذلك فى كتابي هذا والى الله ارغب فى تيسير ما قصدته » (26) وبمقارنة المقدمتين نتبين فى وضوح وجلاء ان المنهجين مختلفان ، ولا يليق بعالم مختصر ان يتطاول هذا التطاول ، ويكتب هذه المقدمة بهـذا المنهج الذي رسمه ، وكتابه تلخيص لكتاب معروف ، وما الدافع الى عدم الاشارة الى هذا التلخيص .

ب ـ ولو كانت حجة ابن خالويه تلخيصا لحجة الفارسي لرأينا تشابها فى اللفظ وتقاربا فى المعنى ، واتحادا فى الفكرة مع ان الكتابين مختلفان لفظا ومعنى ، وفكرة ومنهجا ، وان اتحد موضوعهما ،

(3) اود ان اقول لاخي الفاضل أن كتب المعاجم والفهارس لا يعتمد عليها كل الاعتماد ، لأن بعضا منها نسب كتبا الى غير اصحابها ، وفهارس المخطوطات فى دور الكتب العربية تحتاج الى نظر ، لتفهرس من جديد ، فكثير من المخطوطات قالوا عنها : انها مجهولة النسبة ، وكثير من المخطوطات نسبت الى غير اصحابها ولا ادل على ذلك من هذا التصحيح الذي قمت به لبعض المخطوطات : وهذه أمثلة منها :

1) اعراب القرآن لمؤلف مجهول ..

جاء فى فهارس المخطوطات المصورة لمعهد احياء المخطوطات العربية بالجامعة العربية ما نصه : «اعراب القرآن لمؤلف مجهول . الجزء الثاني من نسخة كتبت فى القرن التاسع ، يبتدىء من أول سورة الأنعام ، وينتهي بآخر سورة الاسراء (27) . وبعد بحث طويل استطعت ان اثبت ان هذا الجزء ليس لمؤلف مجهول ، وانما هو لمؤلف معلوم ، وهو السمين الحلبي ، حيث قارنت نصوصه بنصوص النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 321 ـ تفسير ـ فوجدت النصوص متحدة متماثلة . نفس النصوص ، ونفس الأسلوب ، ونفس الالفاظ (28) .

2) معاني القرآن للزجاج ..

تضم دار الكتب المصرية نسختين مخطوطتين من هذا الكتاب .

ـ نسخة رقم 111 ـ تفسير ، وقد وثقتها برجوعي الى كتاب « الاغفال » لأبي علي الفارسي لأنه ضم كثيرا من نصوص معاني القرآن للزجاج ثم علق عليها مصلحا ما أخطأ فيه الزجاج ، فرأيت ان نسبة هذه النسخة الى الزجاج صحيحة ، لأن النصوص التي اوردها الفارسي فى الاغفال هي نفس النصوص التي اوردها الزجاج فى المعاني .

ـ نسخة رقم 636 ـ تفسير ، وبعد تمحيص استطعت ان اثبت هذه النسخة ليست للزجاج ، والزجاج منها بريء (29) .

3) اعراب القرآن للزجاج رقم 528 ـ تفسير ـ دار الكتب المصرية ليست للزجاج كما بينت سابقا فى هذا البحث .

4) البرهان فى علوم القرآن للحوفي : نسخة رقم 20503 بدار الكتب المصرية . وقد صورت منها النسخة رقم 20784 ب والنسخة رقم 20785 ب .

ومع مجهود التصوير المكرر لهذه النسخة ، فانها ليست للحوفي ، بل هي نسخة من اعراب القرآن لأبي جعفر النحاس (30) .

— ◆ —

وبتوفيق الله لم يسبقني احد الى هذه التصحيحات أو التحقيقات ، ولا فخر فى ذلك ، فان ما يبذل حول الدراسات القرآنية قليل بالنسبة لما يجب ان يكون وقد القت هذه التحقيقات على هذه المخطوطات ضوءا كاشفا يحملنا على ان نعيد النظر فى

---

(26) = مقدمة حجة الفارسي ـ 4 .
(27) 1 ـ 20 .
(28) = القرآن الكريم واثره فى الدراسات النحوية : عبد العال سالم مكرم ـ 253 .
(29) انظر الأدلة فى ذلك المرجع السابق ـ 252 .
(30) انظر الأدلة فى ذلك المرجع السابق ـ 284 .

هذه المخطوطات لتقويمها من جديد حتى لا تختلط القيم وتضطرب الأمور .

— ◆ —

وبعد ، فاني أقدم شكري العميق للأخ الفاضل الأستاذ العابد ، على هذا النقد البريء الذي تفضل به مشكورا .

اشكره لانه اتاح لي فرصة طيبة لبيان وجهة نظري في نسبة كتاب الحجة الى صاحبه وأشكره لانه اثار القراء نحو هذا الكتاب ليطلعوا على ما فيه بأنفسهم ، والقارىء شريك الناقد والباحث في ان يكون له رأي والفكر ليس وقفا على أحد .

ومن حسن الحظ فان الكتاب قد تم طبعه في دار الشروق ببيروت ، وقد رأى النور بنشره ، واسعده الحظ في ان يبعث من جديد بعد احدى وعشرين والف سنة ..

والله أسأل ان يجنبنا الخطأ ، وان يهدينا سواء السبيل .